الحلم والتحلم . . .

للأستاذ محمود عزت عرفة

— ٣ —

« إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم ، ومن يتحر الخير يعطه ، ومن يتوق الشر يوقه » حديث شريف

المأمون :

يرتفع الستار بعد موت الرشيد عن مشهدين متنائيين — أحدهما في بغداد والثاني في مرو — بينهما متسع من الأرض فسيح تخب الدسيسة فيه وتضع .

ولم يكن هذا النزاع بين الأمين والمأمون إلا مظهراً لنزاع أشد وأروع بين حاشيتيهما في حاضرتي العراق وخراسان ، وكان على رأس الأولى الفضل بن الربيع يشد أزره فريق من دعاة السوء وأرباب المطامع … وعلى رأس الثانية الفضل بن سهل يكتنفه الشيعة من أهل خراسان ، وقد وطدوا عزمهم على تقويض العرش العباسي ببغداد وإسناد الخلافة إلى العلويين ، (والعجيب أن المأمون أصبح يرى هذا الرأي ؛ بل هو يضعه موضع التنفيذ كما سترى) .

ولم يكن بين الأخوين من العداوة الشخصية ما يبلغ حد القتال ، ولكنّ بعد ما بينهما أفسح المجال للدسائس والوشايات ، وكان الأمين ضعيف المنّة فاشل الرأي يصيخ لإغراء وزيره ، ودسّ رجال حاشيته ، فنادى بخلع أخيه من ولاية العهد وجعلها لابنه موسى (الناطق بالحق) .

وكان خليقاً بالمأمون أن يرفض هذا التبديل ، وأن يأبى التنازل عن حق كفله له أبوه الرشيد بإشهادين أودعهما البيت الحرام … وكان قد أزالهما الأمين عن موضعهما بإشارة خبيثة من الفضل[1] .

تحركت جيوش جرارة من بغداد منذ عام ١٩٥ هـ بقيادة : علي بن عيسى ، وعبد الرحمن بن جَبَلة ، وابن مزيد ، وابن قحطبة على التوالي . فانبرى لقتالها رجلا المأمون : طاهر بن الحسين ، وهرثمة بن أعين .

وبعد حروب امتدت ثلاثة أعوام وطئت عساكر المأمون أرض بغداد ، وقُتل الأمين بأيدي الخراسانيين ، وحمل رأسه إلى أخيه مع بقية شارات الملك ، وكان هذا القتل على غير رغبة المأمون …

تولى كِبْرَه رجال طاهر من الفرس حين أسلم الأمين نفسه إلى هرثمة بن أعين . وليس من شك في أن الأمين أيضاً كان يضنّ بأخيه أن يقتل فيما لو أظفره الله به . وإنا لنراه يوصي قائد جيوشه (علي بن عيسى بن ماهان) يوم وجّهه من بغداد إلى خراسان فيقول :

إذا أشخصته — يعني عبد الله المأمون — فليكن مع أوثق أصحابك عندك ، فإن غره الشيطان فناصبك العداء فاحرص على أن تأسره أسراً !

وتقول زبيدة أم الأمين في وصيتها للقائد (علي) : اعرف لعبد الله حق والده وأخوّته ، ولا تجبهه بالكلام فإنك لست نظيره ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ، ولا توهنه بقيد ولا غل … ولا تركب قبله ، ولا تستقل دابتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شتمك فاحتمل منه ، وإن سفه عليك فلا تراده … ثم هي ترفع إليه قيداً من الفضة وتقول : إن صار في يدك فقيده بهذا القيد !

فلما تم النصر للمأمون ، واستولى على عرش بغداد قال لجلسائه مرة وهو يثلب الفضل بن الربيع ويعدد مخازيه : كان صغوه إلى المخلوع ، فحمله على أن أغراه بي ودعاه إلى قتلي ، وحرك الآخر ما يحرك القرابة والرحم الماسة فقال : أما القتل فلا أقتله ، ولكن أجعله بحيث إذا قال لم يطع ، وإذا دعا لم يجب . فكان أحسن حالاتي عنده أن وجّه مع علي بن عيسى قيد فضة بعد ما تنازعا في الفضة والحديد ؛ ليقيدني به ، وذهب عنه قوله تعالى : « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه ، لينصرنه الله » اهـ

كان المأمون يعرف عن أخيه فسولة الرأي وسهولة الانقياد لمن أحاط به من بطانة السوء ، ولعله لو وقع في أسره لكان أقصى

---

(١) كان الرشيد عند وفاته بطوس (١٩٣ هـ) قد أوصى بالجيش وسائر معداته وذخائره لابنه المأمون ، فخالف الفضل بن الربيع هذه الوصية وارتد بالجيش إلى بغداد وفقاً لرغبة الأمين ، ولم يقبل دعوة المأمون له بالرجوع ، فأوقع ذلك في نفسه الرهبة من انتقامه إذا ما تولى الخلافة ولو حتى فمن هنا كان تفنن الربيع في الكيد للمأمون !

ما يفعله معه أن يقيده بهذا القيد من الفضة الذى أعده له ، ثم يحمله حتى يطرحه عند أمه زبيدة فيقول لها : أدّبى ولدك يا أماه بنا أساء ، فلقد خان عهد أبينا الرشيد ، وأصاخ إلى من يريدون بأسرتنا وبملكنا شراً …

ولكن جرت الأمور بغير ما قدر هؤلاء جميعاً ، وطاح رأس الأمين على مذبح هذه الفتنة المشؤوم ، والتفت المأمون حوله فإذا سكون شامل وصمت رهيب ؛ وإذا أعداؤه ما بين قتيل قد كُفِى شره ، أو هارب يتلمس التخفى ويطلب أسباب النجاة ، ولم تنشط نفس المأمون إلى ورود بغداد واعتلاء عرشها الداى إلا بعد انطواء ست سنين على مقتل أخيه (من ١٩٨ إلى ٢٠٤ هـ) ، وكأنما كانت نفسه قد ملت القتل وبرمت بالقتال ، وامتلأ قلبه بالسكون وبالطمأنينة ، وبالفلسفة والتأمل الصامت ؛ فجنح إلى العفو والسماحة ، وشُغل عن كثير من مطامع الحياة وأهواء السياسة والمجتمع ، وانصرف بجهده إلى العلم ومدارسته وتشجيع المشتغلين به ، وحثهم على التوفر عليه ؛ كما هو معلوم من سيرته …

وكان عفوه عمن دخلوا فى فتنة الأمين شاملا ، وأتبع ذلك عفوه عن عمه إبراهيم بن المهدى الذى ادعى الخلافة (عام ٢٠١هـ) قبل مقدم المأمون إلى بغداد ، وكان سبب قيام ابن المهدى فى بغداد ما أجمع عليه العباسيون من خلع المأمون عند ما اختار لولاية عهده علياً الرضى بن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق من العلويين وظاهر الفضل بن الربيع وقتئذ — وكان مختفياً منذ مقتل الأمين — فانضم إلى ابن المهدى متحدياً المأمون للمرة الثانية ، وكان من العجيب أن يشمله العفو رغم كل ذلك . ولما مثل بين يدى المأمون فى ذلته وانكساره قال له : يا فضل ، أكان من حق عليك وحق آبائى ونعمهم عند أبيك وعندك ، أن تثلبنى وتسبنى وتحرض على دمى ؟ أتحب أن أفعل بك ما فعلته بى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : إن عذرى يحقدك إذا كان واضحاً جميلا ، فكيف إذا حفّته العيوب وقبحته الذنوب ؟ فلا يضق عنى من عفوك ما وسع غيرى منك ، فأنت كما قال الشاعر فيك :

صفوحٌ عن الإجرام حتى كأنه … من العفو لم يعرف من الناس مجرما
وليس يبالى أن يكون به الأذى … إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلما(١)

فأسبل المأمون عليه ثوب عفوه …

وعفا عن إسحق بن العباس ، وكان ممن أجلب مع ابن المهدى ، وعفا أيضاً عن ذوى قرابته من آل عبد الملك بن صالح بعد أن كان قبض ضياعهم . فردها عليهم وقضى حوائجهم .

بل لقد هجاه دعبل الخزاعى الشاعر بداليته التى يقول فيها :

أيسومنى المأمونُ خطة خسفه … أو ما رأى بالأمس رأس محمد ؟

فلم يعد إليه يداً بسوء . ثم عمل دعبل أبياتاً فى إبراهيم بن المهدى بعد العفو عنه ، أولها :

نعر (ابن شكلة) بالعراق وأهله … فهفا إليه كل أطلس مائق

فشكاه إبراهيم إلى المأمون . فقال له : لك أسوة بى ، فقد هجانى واحتملته ، وقال فىّ : أيسومنى المأمون … وأنشده الأبيات . فقال إبراهيم : زادك الله حلماً يا أمير المؤمنين وعلماً ، فما ينطق أحدُنا إلا عن فضل علمك ، ولا يحلم إلا اتباعاً لحلمك .

وهجا الحسين بن الضحاك المأمون بقصائد ؛ ثم دخل عليه فى بغداد مادحاً ، فعاتبه ووبخه ؛ ثم عفا عنه ، وقال : جعلت عقوبة ذنبك امتناعى عن استخدامك .

***

كانت فتنة الأمين والمأمون شديدة الوقع فى نفوس العباسيين جميعاً ، وضاعف من وضعها مقتل الأمين الذى يعد الحادث الأول من نوعه فى تاريخهم ، وقد تلا ذلك فترة سكون وسلام داخلى زينها المأمون بعفوه وتسامحه ، وبلغ من تماديه فى هذا الخلق الكريم أن كان يقول : أما لو عرف الناس ما لنا فى العفو من اللذة لتقربوا إلينا بالجنايات !

وكأنما كان يسمع كلامه هذا أحدُ البغداديين حين أثنى عليه بقوله :

مازلتَ فى البذل والنوال وإط … لاق لعانٍ بجرمه غَلِقِ
حتى تمنى البراء أنهمو … عندك أسرى فى القيد والحلق

ولقد أتى على المأمون حين من الدهر كان لا يثق فيه بالسلامة من أعدائه فضلا عن التغلب عليهم . فلما توطد له الأمر وتمت عليه نعمة ربه ؛ جعل من العفو عن أعدائه شكراً يتقرب به إلى الله

(١) قال الصولى : الشعر للحسن بن رجاء.

وقد ألم بهذا المعنى فى كلامه غير مرة ... كان فى مجلسه من أصحابه يوماً حين انهملت عيناه بالدمع ، فلما سئل عن سبب بكائه قال : ما ذلك من حدث ، ولا لمكروه همت به لأحد ، ولكنه جنسٌ من أجناس الشكر لله لعظمته ، وذكر نعمته التى أنعمها علىّ كما أنعمها على أبوىّ من قبل . أما ترون ذلك الذى فى صحن الدار — يعنى الفضل بن الربيع — كان فى أيام الرشيد ، وحاله حاله ، يرانى بوجه أعرف فيه البغضاء والشنآن ؛ وكان له عندى كالذى لى عنده ، ولكنى كنت أداريه خوفاً من سعايته وحذراً من أكاذيبه . فكنت إذا سلمت عليه فرد علىّ ، أظل لذلك فرحاً وبه مبتهجاً ...

وعفا المأمون عن سعيد الخطيب وقال عنه — وقد وقف على رأسه يمدحه ويشيد بسيرته — : هذا الخطيب كان بالأمس يقف على المنبر الذى بإزائى مرة ، وعلى المنبر الغربى مرة ، فيزعم أنى المأفون ولست بالمأمون ! ... ثم هو الساعة يقرظنى تقريظه المسيح ومحمداً عليهما السلام !

صلاح الدين الأيوبى :

يعد صلاح الدين النموذج الكامل للحليم يجنى عليه حلمه ، ويُورده وقومه موارد الضر والأذى . فهو قد نهض بهذا السلاح النبيل فى وجوه قوم لم يتخذوا سوى الغدر والخيانة عدة لهم وسلاحاً ، وكانوا بما دسّ فى عقولهم رهبان القرون الوسطى لا يرون فى الحملات الصليبية إلا وسيلة لإبادة المسلمين بالمشرق ، والاستيلاء على تراثهم المادى فيه .

وهكذا كانت خرافة بيت القدس وتطهيره من (الكفار) تخديراً — ليس أكثر — لأعصاب الملايين من طغام أوربا ، واستثارة للعصبية الدينية المقيتة فى نفوسهم ، ولم يكن ليسم البابا أوربان الثانى وهو يرسل صيحاته الفتاكة — فى كليرمونت بفرنسا عام ١٠٩٥ — إلا أن يقرنها بذكر الباعث الحقيق على شنّ هذه الحروب فيقول : إنها ليست لاكتساب مدينة واحدة ؛ بل لامتلاك أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التى لا تحصى . فاتخذوا البيت المقدس حجة ، وخلصوا الأراضى المقدسة من أيدى المختلسين لها ، وامتلكوها أنتم خالصة لكم من دون أولئك الكفار ، فهذه الأرض كما قالت التوراة : « تفيض لبنا وعسلا »[1] .

وكان سواد الجيوش الصليبية يتألف من رعاع أوربا الذين طمست الجهالة بصائرهم ، فساقهم رجال الدين سوق الماشيات لتحقيق مآربهم السياسية وأطماعهم المادية . يصفهم المستشرق الانجليزى سير وليم موير بأنهم « الطبقة الدنيا ... خرجوا فى جموع غفيرة متبعين بطرس الناسك وغيره من القواد ، مدفوعين بالتعصب الشديد ؛ ولكن لم يلبثوا أن ظهروا عبيداً للشهوات والميول الدنيئة[2] » .

ويقول عنهم فى موضع آخر : « أما البارونات والفرسان مهما كانت طبقتهم ، فلم يكن همهم غير التنازع على السيادة . والواقع أنه قضى عليهم الشره والغيرة والخصام والمبالغة فى الترف وهؤلاء الرجال الدنسون هم حماة الأرض المقدسة ! » .

ويصف من شرهم يوم فتحوا بيت المقدس أنهم سفكوا دماء سبعين ألف مسلم لم يراعوا فيهم حرمة لشيخ أو امرأة أو طفل . ثم يقول : « وبعد أن أشبع جنود الصليب شهواتهم الوحشية أوفوا بنذورهم وقبلوا الحجر الذى كان يغطى المسيح الذى قال : إن مملكتى ليست من هذا العالم وإلا لما قاتل أتباعى» .

هؤلاء هم الأعداء الذين قدر لصلاح الدين أن يلقاهم فى ميدان الجهاد ... فكيف لقيهم ؟

لسنا نعدو هنا الإشارة إلى بعض مواقفه حيالهم ، غب كل انتصار كان يتم له عليهم ، ففى ذلك وحده ما يكفى فى الدلالة على ما نريد .

أسر السلطان صلاح الدين فى موقعة حطين : جاى دى لوزينان (جوى) ملك بيت القدس ، وبليان صاحب الرملة ، ورينولد أمير الكرك والشوبك . فلم يهدر إلا دم الأخير منهم وفاءً لمين كان أقسمها أن يضرب عنقه بيده جزاء ما تطاول به على مقام النبوة ، ولسوء غدره ، وكثرة تعرضه لقوافل المسلمين المجتازة على الكرك .

---

(١) تاريخ صلاح الدين الأيوبى للدكتور أحمد بيلى

(٢) تاريخ دولة المماليك فى مصر تأليف وليم موير ، وترجمة محمود عابدين وسليم حسن

أما بليان صاحب الرملة فقد استأذن من صلاح الدين — كما يستأذن الحر الشريف ! أن يتركه يمضي إلى القدس فيحمل زوجه وأولاده قبل أن تدهمها جحافل السلطان وأقسم ألا يتجاوز مكثه بها الليلة الواحدة . فلما بلغها التف حوله القوم ضارعين ، واستماله البطريق إلى أن يقيم معهم ليضطلع بقيادة الحلة الصليبية وأباحه كنوز الكنيسة يتناول منها ما يشاء . فجنح الأمير إلى الغدر ، ونسي يمينه ووعده فما ذكره بهما إلا صلاح الدين وهو يدق عليه أبواب بيت المقدس ، ثم يفتحه على القوم صلحاً ؛ ومن العجيب أنه خرج مع سائر من خرجوا — وفق شروط الصلح — معافى موفوراً …

وأما جاي دى لوزينيان Guy de Lusignan ملك بيت المقدس فقد احتمله السلطان معه في تنقلاته فترة ما دخلها كان في (أنطرطوس) أطلق سراحه بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق أن يغادر الشام إلى أوربا نافضاً يده من القتال . فخنث هذا الملك بعهده ؛ ومضى إلى صور حيث أبى عليه كوزاد صاحب حاميتها أن يتولى معه زمام أمر . فاتجه إلى طرابلس وحشد بها الحشود ، ثم ذهب إلى عكا — وكانت في يد المسلمين — فضرب حولها الحصار عامين ، يعاونه فيليب ورتشارد ملكا فرنسا وانجلترا ، وقد قتل في هذا الحصار ستون ألفاً من المسلمين ، ثم جرت يوم فتحها مذبحة رهيبة ذهب فيها ألفان وسبعمائة مسلم . ويقول المؤرخون إن ملكي الانجليز والفرنسيس مرضا في أثناء هذا الحصار فأرسل إليهما صلاح الدين ألطافاً من ثلج وشراب بارد وفاكهة وغيرها[1] .

لقد كان صلاح الدين في الحقيقة أسداً باسل الهمة كريم النحيزة ، يلقى ذئاباً ضاريات حشو جلودها الخسة والمكر ، والخديعة والجبن ، وأشباهها من دنيئات الأخلاق .

ولقد أفضى سقوط عكا عام ١١٦١ م في أيدى الصليبيين إلى نتيجة مؤلمة رهيبة هي — في أوجز تعبير — امتداد الحروب الصليبية « مائة عام » أخرى يسجلها التاريخ بمداد من الدم الصبيب !

فقد اتخذ الصليبيون عكا حصناً لهم عوضاً عن بيت المقدس ، وظلوا يناوئون منها المسلمين في الشام وفي مصر ؛ حتى كان سقوطها على يد السلطان الظاهر بيبرس (١٢٩١ م) خاتمة لهذه المذابح الفظيعة التي انتهت بطرد الصليبيين من الشرق بعد أن لطخت سجل تاريخ العصور الوسطى بدماء لا تبلى ولا تجف . فما أبهظ الثمن الذى دفعه المسلمون من دمائهم ومن مدنيتهم — خلال مائة سنة « إضافية » من الحرب — لقاء هذه اللحظة العابرة التي تحركت فيها مشاعر صلاح الدين فأطلق سراح ملك بيت المقدس جاى دى لوزينان ! حقاً إنها للحظة حاسمة من لحظات التاريخ ؛ تركت على وجه الأرض أثرها الذى لا يمحى .

(يتبع) محمود عزت عرفة

وزارة المعارف العمومية

إدارة التوريدات

المناقصات العامة

إعلان مناقصة

تقدم العطاءات بعنوان حضرة صاحب العزة وكيل المعارف المساعد بشارع الفلكي بمصر بالبريد الموصى عليه أو بوضعها باليد بمعرفة مقدميه في داخل الصندوق المخصص لذلك في إدارة المحفوظات بالوزارة لغاية الساعة العاشرة من صباح يوم ١٩ / ١٠ / ٤٦ عن توريد خراطيم كاوتشوك للوزارة .

ويمكن الحصول على شروط وقائمة المناقصة المذكورة من إدارة التوريدات بشارع الفلكي بمصر نظير دفع مبلغ ١٠٠ مليم . ٦١٥١

(١) وفي موقعة عند يافا بين صلاح الدين ورتشارد يقولون إن السلطان أهدى إلى الملك جوادين من أنفس جياده ، لما رآه يقود جنوده راجلا .